الهـــوى العذرى

بين جميل وبثينة

للأستاذ نقولا الحداد

كثيراً ما يكون أن تؤدى الحوادث التافهة إلى أمور جسام ، ما من أحد إلا رأى ثمرة تسقط عن شجرة فلم يبال . ولكن السير إسحق نيوتن رأى ذات يوم تفاحة تسقط من شجرتها فتنبه إلى سبب سقوطها . وكان من جرّاء تفكيره فيه أنه اكتشف ناموس الجاذبية واستنبط « حساب التفاضل والتمام » الذى يعد فى قمة العلوم الرياضية

والحب غريزة فى الأحياء حتى فى الجماد . وكل إنسان يحب ويعشق . على أن الآدميين متفاوتون فى سورة الحب . وجميل بثينة لا يعد نادرة الزمان فى العشق والغرام . فمثله كثيرون : كقيس ليلى وقيس لبنى وكثيّر عزة وأمثالهم ممن كنّاهم الناس بأسماء معشوقاتهم أو لم يكنوهم . ولكنهم اشتهروا بشغفهم وافتتانهم وغرامهم المضنى

والأستاذ عباس العقاد اتخذ عشق جميل بثينة « تفاحة نيوتونية » لكى يتوسل به إلى أبحاث سيكولوجية وأخلاقية واجتماعية فى الحب والعشق . فأوغل فى صميم هذه الأبحاث فى كتابه جميل بثينة حتى استخرج منها نواميس الحب العليا كما استخرج نيوتن من سقوط « التفاحة » ناموس الجاذبية الكونية » . ولا بدع فكلا الحب والجاذبية نبضة واحدة فى الطبيعة وعند التحقيق نجد أن لهما ناموساً واحداً

إنما جاذبية الكون حبٌّ وكذا الحب فى الورى جاذبية

وعندى أن أقوى ما يسترعى الأذهان فى مباحث العقاد إصابته موضوع « الهوى العذرى » . وهو بالحقيقة موضوع سيكولوجى ليس بالهين الخوض فيه والغوص إلى قرار بحره ؛ لأن : الهوى العذرى ظاهرة نفسية إنسانية تناقض سنة الغريزة النسلية فى خط مستقيم . وفى الطبيعة البشرية الآن كثير من الظاهرات الأخلاقية التى تناقض الغرائز الطبيعية فى الأحياء حتى العليا منها . وأظهرها سنّة التنازع ، « تنازع البقاء وبقاء الأنسب » . تقوم تجاهها فى العالم الاجتماعى « سنة التعاون والتضامن » فهذه طبيعة اجتماعية أخلاقية تناقض على خط مستقيم سنة تنازع البقاء البيولوجية

والمسألة التى هى موضوع التحليل والتعليل فى الناحيتين هى : إلى أى حد يبتعد الهوى العذرى عن الحب الطبيعى الغريزى . ففى فصل عشق جميل وبثينة بحث مستفيض فى هذا

ولى فى تعليل الهوى العذرى كلمة أبسطها فيما يلى تمشياً مع الأستاذ فى بحثه :

إذا كان المعشوق على منال اليد من العاشق كان الحب غريزياً لا تخيل فيه ولا تصوُّر . الذات حاضرة فلا لزوم للصورة ولا وظيفة لها . والحقيقة قائمة فلا سبيل للخيال . ومتى طلعت الشمس اختفى الظلام ، وإذا تفتحت العينان انمحى الطيف من المخيلة

الحب الغريزى هو المبدأ الأول ، هو لهب الشهوة . فإذا انطفأت هذه الشهوة خمد الحب ، ومتى تيقظت احتدم . فإذا كان الحبيب بعيد المنال تولّى الخيال العمل فى دولة الحب بإيعاز الشهوة . حينئذ تخترع المخيلة الجمال وتبدع فى تصويره إلى أن تصبح صورة الحبيب فى صفحة التصور أجمل من الحبيب نفسه فى هيكل المادة . حتى إذا استعرض الصب حبيبه رآه كما صورته المخيلة لا كما ترى عيناه هيكله المادى . ولهذا قد تستغرب إذ ترى معشوقاً لا مزية له على سائر الناس يفتن عاشقه دون سائر الناس ، ويفتتن به عاشقه دون سائر الناس . فتستغرب هذا الافتتان وتندهش من وله هذا العاشق وهيامه بحبيب لا يتفوق بشىء عن سائر المعاشيق . ولا يزيل دهشتك هذه إلا آية الغرام الذهبية وهى « الجمال فى عين الرائى »

فإذا تعذر اتصال المحب بالحبيب تحول غرامه إلى طيف الحبيب وخياله . يصبح عاشقاً خيالاً قائماً فى مخيلته وهو مانسميه « الحب الروحانى » . يرتفع الحب فى نفس الإنسان من حضيض المادة إلى سماء الروح . ويحلق فى أعالى تلك السماء حتى يصبح العاشق وهو يبتغى تمتعاً نفسانياً لا جسدياً . حينئذ يتوارى الحب الغريزى وراء الحب الروحانى . وهذا قابل دون ذلك للتعاظم إلى ما لا نهاية له . يتعاظم الحب الروحانى ويتضاءل الحب الجسدانى ، إلى أن يصبح

ذاك برجا هائلاً ، وهذا حصاة فى أسفل البرج . يصبح العاشق كله روحاً تطوف فى سماء الوجود ، بل تكاد تمدد خيال المعشوق حتى يشمل الكون كله ، أو تقلص الكون كله حتى ينطوى فى خيال المعشوق . حينئذ يقنع العاشق بنسمة من أنفاس المعشوق ، وبنظرة فى صورته ، ويسمع كلمة رضى منه ، كما قال ابن الفارض :

عدينى بوصل وامطلى بنجازه
فعندى إذا صح الهوى حسن المطلُ

وما دام هوى العاشق يتجسم على هذا النحو ، والعاشق يتلذذ بهذا الوهم ، ولا يمكنه أن يحصل على الحقيقة . فهواه هذا هو الذى نسميه « الهوى العذرى » . ونعنى بالهوى العذرى الحب الذى خلا من نبضة الغريزة النسلية وتوارت فيه الشهوة الجنسية هو العنب الذى أعرض عنه الثعلب لأنه عال لا يمكنه أن يثب إليه ، فقال : « إنه عنب حامض »

فإذا قدرت ما تقدم من التعليل فلا تستغرب أن يعظم هذا الحب الروحى إلى حد يطمس أن الحب الغريزى ، ويتمادى العاشق فى تولهه وهيامه حتى يتراءى له أن اللذة الجسدية أصبحت ثانوية عنده

ولكن متى زالت موانع الاتصال بالحبيب ارتدّ الهوى الروحانى إلى الوراء ، وبرز الهوى الغريزى إلى الأمام وقضى على عذرية الحب

على أن الهوى الروحانى لا تذهب قوته سدى بل تضاعف قوة الهوى الغريزى ، لأنه كلما حلق الحب فى جو الخيال وسبح فى فضاء الروحانيات انقض إلى حضيض الحب الغريزى متى زالت موانع الاتصال بالحبيب . وكلما كان ارتفاعه عظيما كان انقضاضه قوياً

وفى رأى مارى ستوب مؤلفة كتاب « الحياة الزوجية » أنه يحسن بالزوجين أن يفترقا حيناً بعد حين ويعيشا منفردين لكى يتعاظم فى قلبيهما الحب الروحانى العذرى حتى متى اشتد شوقهما التقيا بقوة حب شديد

ولذلك ما نسميه هوى عذرياً ليس إلا فرقاً أثيرياً وهمياً يزول بزوال الموانع من لقاء الحبيبين

أما الموانع فلا يجهلها أحد . فمنها ما هو شرعى كارتباط أحد المتعاشقين بزواج آخر . أو ما هو شبه شرعى كتفاوتهما فى المقام والشرف والنسب الخ . أو ما هو عرفى كالحشمة الفائقة التى تأبى عليهما اتصالاً بلا مسوغ شرعى . وهذا المانع الأخير كان قوياً عند العرب وله أشكال مختلفة . ومنها عند العرب تشبيب الشاعر بعشيقة يحرم عليه الزواج منها . وكنا نود أن يشرح لنا الأستاذ العقاد هذه الشريعة العرفية عند العرب ويفسر لنا سببها وفلسفتها .

والمرأة عند الأمم العريقة فى الحضارة ولا سيما الأمم الغربية مصونة كل التصون . وفى كثير من العصور كانت فى الخدور والعرض مقدس بعد قداسة المعبود . ولذلك كان الحب الغريزى محتبساً فى نطاق ضيق من الأدب ولا يجد له منفذاً إلا من نافذة التخيلات الشعرية . فمتى عز على العاشق لقاء محبوبه جنح إلى التأمل العقلى حتى تسنى له أن يتمثل لقاءه بحبيبه ويشاهد جماله الفتان وبهاءه اللامع ولطفه الأثيرى فيتمتع به تخيلياً

إذن فهذا الهوى العذرى الذى هو منطق الحب الروحانى الخيالى هو موحى الشعر الغزلى . ولولاه لما كان ثمت شعر ، لأن الحب الغريزى لا يوحى بشىء سوى طاعة الطبيعة فقط . والإنسان والحيوان فيه سواء

بهذا الحب الشعرى يتلذذ المحب ويترفع عن الشهوة البهيمية . وفى هذا الفردوس الغرامى الذى تبتدعه المخيلة ينشأ إلهة الشعر . أجل ، فى هذه الخلوة العقلية التى يحتكر فيها الحب القوى العقلية ويحضرها فى التأملات الغرامية تتيقظ فى نفس العاشق غريزة الشاعرية . فكل عاشق شاعر بحكم الحب . ولكن ليس كل شاعر ينظم

بناء على ما تقدم لا يمكن أن يكون حب جميل لبثينة عذرياً إلا حين يكون جميل ممنوعاً عنها ، وكان إنه إذا اتصل بها عاد حبه غريزياً كما فهم من سيرة حياته التى تخللت كتاب الأستاذ العقاد ، ولا ريب أن ذلك المنع الذى منى به جميل تارة من قبل أهله وتارة من قبل أهل بثينة عظم فيه الهوى الروحى الشعرى ، ثم الهوى العذرى فى حين الصد والمنع

بقيت كلمة فى باب من أبواب الحب طرقه الأستاذ العقاد وناقش فيه الأستاذ الدكتور طه حسين بك وهو غدر المحب بالحبيب وتعريضه للفضيحة . ولذلك قصة رواها الدكتور وهى :

« زعموا أن أهل بثينة أذاعوا فى الناس أن جميلاً لا يشبب بابنتهم بل بأمة لهم . فغضب جميل لهذه القالة وأراد أن يكذبها

فواعد بثينة والتقيا ذات ليلة وتحدثا . ثم عرض عليها جميل أن تضحي فأبت ، ثم قبلت . وأخذها النوم . فلما استوثق جميل من ذلك نهض إلى راحلته فمضى ، وأصبح الناس فرأوا بثينة نائمة في غير بيتها فلم يشكوا في أنها كانت مع جميل وقال جميل في ذلك شعراً »

قال الدكتور : « أتظن أن مثل هذا الخبر يمكن أن يكون حقاً ؟ وأن رجلاً كجميل كان يحب بثينة حباً كالذي نجده في شعره يستطيع أن يعرض حبيبته لمثل هذه الفضيحة ! » اهـ

وفي رأي الأستاذ العقاد « أن حب جميل لا يمنع أن يعرضها لتلك الفضيحة ، لأنها لا تتجاوز معنى قصيدة من القصائد الكثيرة تغنى فيها بحبها ولقائها ومناجاتها ، ثم أرسلها في أفواه الرواة تطوف البادية والحاضرة حيث قدر لها المطاف »

فالدكتور يعتقد أن العاشق الذي يحب ذلك الحب العذري لا يمكن أن يغدر بحبيبته ذلك الغدر ، والأستاذ لا يحسب تعريضها للفضيحة غدراً بها ينقض حبه لها فهو يمكن أن يحبها حباً جماً ولا يبالي بفضحها على ذلك الشكل

وإني لأستأذن حضرة الأستاذين الكبيرين أن أقول : إن تصرف جميل مع بثينة في ذلك الحادث وفي قصائده التي تمس سمعتها ليس قاعدة لتصرف العشاق جميعاً . على أن تصرفا كهذا لا يتوقف على الحب وشدته أو ضعفه ، وإنما يتوقف على أخلاق العاشق ونوع تربيته ، فقد يتورع عاشق غير جميل عن أن يعرض حبيبته لفضيحة ، وجميل لا يتورع ، لأن لذلك خلقاً نبيلاً ليس لجميل ، فيتحاشى أن يعرض حبيبته لملامة أو فضيحة بل يمكن أن يكون أنبل من ذلك فيعرض نفسه دون حبيبته لفضيحة لكي ينقذها منها أو من مثلها ، وفي الروايات كثير من أمثلة ذلك . والروايات تمثل على الغالب حقائق لا مُثلاً عليا وهمية فقط . ولا بد أن يكون بعض القراء قد وقعت لهم أو لذويهم حوادث من هذا القبيل . فالمسألة مسألة أخلاق لا مسألة حب . بل هي مسألة أنانية أو غيرية

والغالب أن الهوى العذري يعصم العاشق عن أذى معشوقته أو فضحه . وجميل لم يهو هوى عذرياً ، لأنه لم يكن ممنوعاً من بثينة . أو أنه كان يتخطى المنع فيتصل بها على رغم ممانعة أهلها وأهلها وأراجيف الناس . وإن كان في شعره أو قوله ما يدل على أنه عذري الهوى فهو من قبيل الدعوى الكاذبة بالنزاهة والتعفف كما يفعل كثير من الناس حرصاً على سمعتهم وكرامتهم ومقامهم وهم كاذبون

نفوذ عراد

مغامراتي في أوربا المحتلة

الأستاذ عبد المنعم حسن

وسط مؤامرات ودسائس دولية قام الأستاذ عبد المنعم حسن بثلاث رحلات الى أوربا منذ قامت الحرب الى الآن وكانت أخطر رحلاته في العام الماضي حيث استطاع اختراق النطاق المضروب حول أوربا وسببت له هذه الرحلات مخاطر واعتقالات شتى .

وقد أصدر كتابا يلقي الضوء على رحلاته عنوانه « مغامراتي في أوربا المحتلة » نفدت نسخه خلال شهر فطبع مرة ثانية بعد أن أضيفت إليه فصولا جديدة عن المسلمين في أوربا وسر زواج ملك بلجيكا والحرب السرية في أوربا والاحتلال الموسيقي للنرويج والجزيرة التي يعيش فيها النساء بغير رجال ثم الجزيرة التي يحرم على النساء دخولها وحي العرب في برلين والميدان الخفي وعلى أبواب الحائط الأحمر وثورة الأرض في تركيا وبرنامج كفاحي الياباني ومزين الكتاب بالصور

ويطلب من الناشر دار الكتب الأهلية بميدان الأوبرا وثمنه ٣٠ قرشاً والبريد ٦ قروش وفي السودان من مكتبة كردفان بالأبيض